كلمة العَدد

اللغة.. الصفحة والفراغ

بقلم: عزالدين ميهوبي
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
السابق، وزير الثقافة الحالي.

يقول عالم اللسانيات نوعام تشومسكي Noam Tchomsky **«أستبعد أن يكون العقل صفحة بيضاء وقت الولادة»**، ويقول أمبرتو إيكو: «بدأت الكتابة طفلا في التاسعة. وأذكر أنني كتبت نصا من أربعين صفحة، وجعلت من «الرزنامة» بطلي، الذي أنشأ حضارة على جزيرة متخيّلة، وأنشأ معها لغة، وديانة، وطقوسا.. وفي النهاية، قلت أرجو منكم أن تسامحوني، لقد كذبت عليكم. لستُ إلها، ولا خالقا.. كل شيء خاطئ». [1]

أي أنّ هناك بُنى خاصة بالاكتساب اللّغوي، وفطريتها مرتبطة بالطابع الفريد للغة البشرية، ويضيف تشومسكي «أيّا كانت مستويات ذكاء الأفراد، فإنه يستحيل تفسيرُ عمل صعب ومعقد على غير العادة مثل مهارة استخدام إحدى اللغات، وتمكنهم في سن الطفولة وفي زمان قصير جدا من تعلم تلك اللّغة فيما بعد فحسب، ودون تلقي تعليم منظم من قبل في هذا الموضوع». **فالعقل، في منظور تشومسكي، يتعلم اللّغة عندما يلتقي بها**، أي ترجمة للآية الكريمة (خلَق الإنسان. علّمه البيان) [2]، [3] أما غريمه الفكري السويسري بياجي فيرى بأن **بنى المعرفة عامة تجد أساسها في بنى بيولوجية، ولكن لا توجد وراثيًا أي أنها بنية مخصصة لاكتساب الوظيفة البشرية النوعية التي هي اللّغة.** [4] فالخلاف يظل قائما بين من يقول بالفطرة، ومن يجزم بأن اللّغة يتم تحصيلها بالاكتساب، [5] فإن النظريات والسّجال حول نشوء اللّغة

---

[1]- حوار مع ليكسبريس الفرنسية، 22 أبريل 1999.

[2]- سورة الرحمن؛ الآيتان 4- 3.

[3]- The Quran: Unchallengeable Miracle, By Caner Taslaman

[4]- الرابط http://www.gulfkids.com

[5]- اكتشفت الباحثة اللغوية النفسية الألمانية آنا ماريا (جامعة بون) وزوجها فالتر سيندلماير العالم بشؤون الاتصال (جامعة برلين) أن وأوأة الأطفال في الشهر الثامن من عمرهم تحتوي مقاطع مهمة أطلقوا عليها اسم «الوأوأة الكنسية» واعتبراها حجر الأساس في تطور لغة الإنسان. ويرى الباحثان أن «القدرة على تعلم اللغة» هي الصفة التي يتناقلها الانسان وراثيا وليست «اللغة» بحد ذاتها كما هو سائد بين العلماء في العالم حتى الآن. ولهذا فقد دأبا على دراسة طريقة تطور اللغة عند الأطفال الرضع منذ ولادتهم حتى عمر 18 شهرا، وجمعا كمّا من التسجيلات الصوتية لـ18 رضيعا، وعملا على تحليلها ونقلها إلى لغة بشرية حسب الأبجدية العالمية المعترف بها وباستخدام تقنيات متطورة=.

وماهيتها، ببعديها العلمي والفلسفي لا تتوقف. ويذهب بعض العلماء إلى أنّ للغة تأثيرًا على الجانب الصحّي، ومقاومة الأمراض، فقد أفادت وسائل الإعلام البريطانية عن الباحثة إيلين بياليستوك، التي قادت فريق البحث بجامعة يورك، تورونتو، قولها «**كلما توغّلتَ في تعلّم اللغة الأجنبية، تزايدت فرصكَ في تأخير الإصابة بمرض الزهايمر (خرف الشيخوخة)**». وقالت «إنّ الدراسة حول ثنائية اللّسان أو تعدّد اللغات تركزت على صغار الأطفال. فقد ظل العلماء يتساءلون عن السبب في أن التحدث إليهم بلغتين يعلمهم إتقانهما في الفترة نفسها التي يتعلّم بها معظم بقية الأطفال لغة واحدة. وخلصت الدراسة إلى أن أدمغة الأطفال الذين يتعلمون لغتين في الوقت نفسه تصبح مرنة، وأكثر قدرة من غيرها على التركيز على شيئين مختلفين في الآن نفسه. وبتقدمهم في العمر تصبح أدمغتهم أكثر فعالية من نطاقات أولئك الذين يتحدثون لغة واحدة وحسب». [6]

وذهبت دراسة أخرى قام بها علماء سويديّون إلى «**أنّ تعلم لغة أجنبية يزيد حجم الدماغ**» وأنّ تعلم لغة أجنبية يمارس تأثيرًا ملحوظا على الدماغ، «وأظهر تصوير عمل الدماغ بالرنين المغناطيسي أن مناطق معينة من أدمغة طلاب اللغات ازدادت حجمًا، في حين لا يطرأ أيّ تغيير على أدمغة الطلاب الآخرين». وتشير الدّراسة إلى أنّ تأكيد العلماء «أنّ الأشخاص الذين يتكلمون أكثر من لغة بطلاقة يتمتعون بذاكرة أقوى، ويكونون أكثر إبداعا من الناحية المعرفية، وأكثر مرونة ذهنيًا من الناطقين بلغة واحدة فقط». بينما تشير دراسات كندية إلى أن الناطقين بلغة واحدة يُصابون بمرض الزهايمر قبل الذين يتكلمون أكثر من لغة. [7]

وكانت مجلّة العلم الجديد New Science أشارت في دراسة لها إلى «أنّ الأبحاث التي أجريت على مرضى الزهايمر أظهرت أنهم يشعرون بتحسن كبير بعد إخضاعهم للعلاج بالموسيقى، وأنّه يؤدّي إلى التغلب على الرواسب النفسية الناجمة عن تعرض أشخاص، خصوصًا الأطفال، للاعتداء عليهم». [8]

ومع كلّ هذه البحوث العلميّة، يبقى السؤال المحوري هو **هل اللّغة خلقٌ أم ابتكار؟** أي هل نشأت مع الإنسان أم أنها جاءت بعد أن اكتشف الإنسان حاجاته وصار يفكر في أداة للتواصل؟ وسنعرض لأهم الأفكار التي وردت في هذا المجال، من مؤيد لخلقها ونشوئها بإرادة إلهية، ومن يرى غير ذلك من أنّ للإنسان يدًا في ظهور اللّغة، وإفراد مساحة للغات المبتكرة التي سعى، أشخاص طبيعيون، إلى ابتكارها وطرحها كبديل

=وتوصلا إلى أن نغمات وطبقات وأوأة أو تأتأة الأطفال الرضع تنطبق منذ الشهر الثامن من حياتهم مع لغة الأبوين. والمفاجئ، حسب تصريح الباحثة، هو أن الرضع خزنوا مقاطع «الوأوأة الكنسية» في أدمغتهم كي يستخدموها لاحقا في تطوير لغتهم، إذ ظهرت هذه المقاطع الكنسية مجددا في سن 18 شهرا حينما يبدأ الطفل بمحاولة الحديث بشكل جاد. (المصدر: إيلاف، 18 يناير 2002).

[6]- صلاح أحمد، إيلاف، 19 فبراير 2011.

[7]- موقع إيلاف 6 سبتمبر 2014.

[8]- موقع إيلاف 3 أكتوبر 2014.

للغات الطبيعية، لتكون وسيلة للتواصل بين البشر، أي **سوبر/لغة**، ونعرض للأسباب التي أدت إلى نشوء هذا النوع من التفكير المزاحم لتجارب حققت تراكما تاريخيا طويلا.

حازت اللّغة مساحةً واسعة في تفكير اللغويين والمفكرين والفلاسفة وعلماء النفس والأنتربولوجيا، كونها ظاهرة جديرة بالتأمّل والتفكير، فمن نشوئها إلى ممارستها حتى اندثارها وموتها، إلى تفكيكها كفكرة وفعل وخطاب ونصّ، وأنشئت لذلك مراكز بحث، وأسست نظريات لغوية، وأصبح العالم يعيش على وقع المطالبة بحماية اللغات بعد أن تحوّلت إلى عناصر مشكّلة للهُويّة. فأي توصيف لهذه اللغة؟ سؤال طرحناه مرارًا في هذه الدراسة، وفي كلّ مرة تكون الإجابة مختلفة، وينظر إليها من زاوية متغيّرة، لكن الجواب النهائي لن يكون غدًا.

وظهرت كتبٌ عديدة تبحث في أصل اللغة، ونشوئها، ومصيرها. وحاول كثيرٌ من الباحثين إيجاد مسارات علميّة ونفسيّة لفكّ لغز اللغة، ولم تتوقف الأبحاث العلميّة على مدّ هؤلاء الخبراء اللغويين بمفاتيح جديدة، تجعلهم في كلّ مرة أقرب إلى بلوغ الجواب النهائي، إلاّ أنّ سرّ اللّغة يبقى مطروحا بحدّة.

وقد بلغَ حدُّ التفكير إلى طرح سؤال جوهريّ، مفادُه «هل نفكّر بواسطة الكلمات أم بواسطة الصوّر؟».

لقد جزم الفلاسفة دوما بأن **اللغة هي التي تصنع الفكر**. فبغير الكلمة لا يوجد مفهوم ولا توجد فكرة واضحة. فهل تكون هذه الفكرة الدّارجة، بكل بساطة، خاطئة؟ «ويبحث العلماء في المسألة طويلا، فتتفتّح عن ذلك أسئلة فرعيّة لكنّها عميقة، وتطرح افتراضات منها: إذا كان **الفكر وليد اللّغة** فما الذي يحدث بالنسبة لأبكم أصمّ لا يتكلم أية لغة؟ وتأتي إجابة بعض العلماء مختلّة، فبعضهم [9] يعتقد أنّ الأصم الأبكم محرومٌ من اللغة، والحال أنّ الكل يعلم أن **الصمّ البكم يستعملون لغة إشارات لا تقل دقة وجودة وثراء عن اللغة المنطوقة**. علاوة على ذلك، يستطيع الصمّ البكم القراءة والكتابة وتبليغ تجاربهم مثلي ومثلكم».

ويمكن تلخيص العلاقة بين اللغة والصورة في أنّ «**الذهن حاضر واللغة متخلفة**»، فهناك تفكير من دون لغة، يصدر عادة عن محبوسي اللسان (الذين تعرّضوا لضرر دماغي فأضاعوا ملكة استعمال اللغة مؤقتا أو بصورة دائمة، إذْ أثبتت التجارب أنّ هؤلاء المحبوسين (..) استطاعوا أن يَرْوُوا كيف كانوا يفكرون دون لغة، وأن تعرض أدمغتهم للضرر لم يمنعهم من مواصلة التفكير. «**فاللغة ليست سوى أداة مناسبة إلى حدّ مَا، مخصّصة لتبليغ أفكارنا**. وهي تخضع إلى قواعد الهيكلة الداخلية التي لا تتوافق دائما مع طيّات التفكير الخاص. **والخدمة التي تقدمها اللغة هي أن تقيم جسورا بين العوالم الذهنية**. لكنها لا تستطيع أبدا أن تجعل هذه العوالم شفافة تماما بالنسبة لبعضها البعض». [10]

---

[9]- جورج ستينار (George Steiner) في الفصل الثالث من مؤلفه «الكتب التي لم أكتبها» (دار غاليمار).

[10]- أشيل واينبارغ Achille Weinberg، مجلة «الملفات الكبرى للعلوم الاجتماعية» مارس، أبريل 2008. ترجمة: محمد صدام.

ومن دون شك، فإنّ اللّغةَ، تبقى مسألة معقدة، من حيث إحصاء مفرداتها. فإذا أخذنا مثلاً، أن عدد اللغات، كما يقول بعض المصادر، بلغ 14500 لغة في العالم، قبل 500 عام (أي في العام 1500)، بقيَ منها النصف في العام 2000. والسؤال كم مفردة يمكن أن تحصى في مجموع هذه اللغات؟ إنّ العدَد سيكون بالملايين، **ولكنّ المفارقة هيَ أنّه كلّما انقرضت لغةٌ ولدتْ مفردات جديدة، والسّبب أنّ الثورة الصّناعية، أنتجت مُعجمًا جديدا، بفعلِ الابتكار التّقني وما يفرضُه من ابتكار مصطلحات جديدة، ضمن أنماطٍ لغويّة جديدة** (الانجليزية والفرنسيّة)، **ومع الثّورة الرّقميّة الهائلة، أخذَ المعجمُ اللّغويّ شكلاً آخرَ، يتمثل في إنتاج لُغةِ رموزٍ وإشاراتٍ وصُور**، لأنّ وتيرة الإنتاج التقني أكثر سرعة من إنتاج مصطلحات لما ينتج ويخترع ويبتكر في كل المجالات، التكنولوجيّة والعلميّة والاقتصاديّة، وكذا فيما يتعلّق بالعلوم الاجتماعية والإنسانية.

إنّ الإنسان على مدار تعاقب الأمم والحضارات، كان يجدّدُ عقله، بتغيير نمط حياته ووسائل إنتاجه، ويحقّق تراكمًا مختلفا. يقول الكاتبان أونشتاين وإبرليش في كتابهما «**عقل جديد لعالم جديد**» الصادر في العام 1994 يلزم أنْ يفهمَ الجميع الدّور المحتمل للتّطوّر الحضاري في تجاوز مخزون العقل، أن يفهموه كما يفهمون لغةَ حديثهم. **إنّ المعارفَ العلميّة، التي ساعدت في تفجير المشاكل المعاصرة قد أنجبت أيضًا قدرًا لا يبارى من المعرفة عن الطريقة التي يدرك بها الناس العالم ويفهمونه.**

هذا المخزون العقلي يمثّل التحدّي الحقيقي لمدى قدرة الإنسان في أن يوائم بين إنتاج المعرفة، وإنتاج اللغة، فالسّرعة التي تولّدت عن الثورة الرقميّة، كشفت أنّ الإنسان كلّما حقّق قدرا عاليًا من التطور والتنميّة، صارَ عاجزا عن التوصيف والتأريخ لذلك. لأنه يبتلعُ ذكاءه وعبقريّته.

يقول الخبير الاستشرافي تيري غودان Thierry Gaudin في كتابه القيّم **(2100، أوديسا الأنواع)** الصّادر في العام 1993: «تهدف اللّغة إلى الاتصال، وتهدف أيضا إلى التّواري عن الاتصال. **فجدران برلين الجديدة ماثلةٌ في الرؤوس. جدران من الكلمات، غير مرئية وممنوعة، تعوّض الحدود التي كانت قائمة**». ويضيفُ «إنّ علوم الاقتصاد والاجتماع والجيوسياسية تتوفّر على قاموس لغويّ خاص بها، يتضمّن آلاف الكلمات. وإنّ لغة كاملة مثل الفرنسية والانجليزية والتّامول والماندارين تتوفّر على حوالي ستين ألف كلمة. فالسيّارة الواحدة تتوفّر على ألفي مكوّن (قطعة)، وتضمّ أجنحة السّوق التجاري أكثر من عشرة آلاف مادة للاستهلاك. وأهمّ الأروقة التجارية تديرُ أربعمائة ألف نوع من السلع، والجردُ الخاص بقطع غيّار أسلحة الجيش الأمريكي يُحصي أربعة ملايين وخمسمائة ألف مكان. **إنّ وَصْفَةً واحدةً لمجموعة تقنيّة حديثة تتطلّبُ قرابة ستة ملايين مرجع، أي مائة مرّة ما يتوافّر عليه معجم لغة ما**. وإنّ تعقيدات الحياة وحدها هي ذاتُ سِعَة لا تقارن: بين خمسة ملايين وخمسة وثلاثين مليون نوع من الكائنات الحيوانية والنباتية، حسب تقديرات (التسعينيات). فالتقنية تعني أننا إزاء **لغة مفرطة**، تتخثّر داخلها أنصافُ مفردات، تمثّل بدورها حصونًا لغوية. إنّ اللّغات التقليديّة الثلاثة آلاف، المُتكلّم بها على الكرة الأرضية هي في حالة انقراض، وعشرات منها فقط، معترف بها عالميا، وبالتالي تراجع الأخرى إلى المستوى الثاني. وفي هذا الوقت فإن **اللّغة (المصطلح) التقنية تعرف انفجارا هائلا، بفعل تعدّد الاختصاص.**

يعتقد الباحث الفرنسي جورج ريو Georges RIEU[11] أنّه نجح في وضع أساس للغة المستقبل، بعد سنوات من التفكير والبحث، وتدخل ضمن «اللغات المخادعة» كتلك التي ابتدعها جورج أورويل في روايته «1984». وتتمثل هذه اللغة الجديدة في ابتكار أبجدية من 5000 حرف، تمثل رموزًا وصوّرًا بسيطة قادرة على تحقيق التواصل بشكل أسرع، وأنّها «لغة دون كلمات، أو قواعد نحويّة. لغة سريعة وقويّة وخلاقة؟» هي اللغة الفطرية في دماغنا. أطلق عليها اسم «**فلاش برين flash brain**»، أو اللغة الذّهنية ذات الطبيعة السمعيّة والبصريّة.

ويقرّ ريو بأن تصنيفه تعسفيّ بعض الشيء، وأنه سيواجه غضب اللغويين واللسانيين، ومع ذلك، فإنه يشدد على ضرورة وجود أداة رائعة للمنبوذين لغويّا: «هو نظام عالمي يتيح لكل فرد في العالم أن يستخدم شبكة الإنترنت على سبيل المثال. إنها ميزة الإبداع والخيال، إنّه يُربّي الدّماغ». وحتّى يواجه جورج ريو أيّ نفور أو رفض لفكرته، يقول «يمكن للفرنسيين أن يضحكوا، لكنّني على الأقلّ فعلتُ هذا من أجل الأطفال والصمّ والبكم».

في العام 2002 طُرح في الأسواق كتاب «**غريزة اللغة l'instinct du langage**» لمؤلفه اللغوي الكندي ستيفن بينكر Steven Pinker الذي يناقش نظريات تشومسكي التي توضح الأساس البيولوجي للغة، ويركز فيه على نظرية داروين التي تقول إنّ اللغة هي تكيّف إحيائي بيولوجي من أجل ممارسة الاتصال. ويقول تشومسكي أيضًا.[12] إنّه «من الواضح أنّ اللغة تُستخدمُ للاتصال، مثل الإيماءات أو طريقة اللباس لكن من الناحية الإحصائية وهذا هو المهم ، **فاللغة هي الأكثر استخدامًا في التفكير** والحوار الذاتي.. وأعتقد أنّ **اللغة صُمّمت من أجل التفكير**». ويرى بينكر بأنّ **اللغة هي طبيعة داخلية كانت دفينة أصلا داخل الإنسان**، ويحلل مسألة تطور اللغة من المنطقة الواقعة بين **الغريزة والسلوك المكتسب** بين الطبيعة والثقافة. ويبدأ بنيكر تحليلة بما يطلق عليه «**مورثات القواعد اللغوية**». ويفنّد بينكر ما يسمّيه **التاريخ الكوميدي للتحديد اللغوي وهو الاعتقاد بأن اللغة تشكل الفكر**، ويدلّل على ذلك بأمثلة من الموسيقى والرياضيات ونظرية العلاقات البشرية. كما يناقش بنيكر في هذا الكتاب التناغم بين العقل وسياق الواقع بعد أن استعرض الجوانب الخفيّة من اللغة ومناقشة كيفية تكوّن الكلمات والحاجة إليها وبنائها واستخداماتها. ويغلّبُ بينكر **قدرة العقل البشري على تطوير اللغة** على نظرية أن **اللغة في حد ذاتها هي تقود تطور العقل أو الفكر.**

---

[11]- مدير أبحاث في المركز الفرنسي للبحث العلمي CNRS والمتخصص في التكنولوجيا الدقيقة وعلم الذرة لمدة تفوق الثلاثين عامًا.

[12]- في حوار مع مجلة البحث la Recherche بتاريخ 01 يوليو 2010 عدد 443.

وعلى النقيض من ذلك اجتهد المفكّر اللبناني المثير للجدل حسن عجمي (1945- 2014) في كتابه: السوبر مستقبلية (الكون والعقل واللغة) [13] بقوله «**تتكوّن اللغة في المستقبل**. فإذا كانت اللّغة وسيلة للتواصل أو للتخاطب بين البشر - بما أنّ بعض البشر موجودون في المستقبل- إذن فاللغة تتكوّن في المستقبل، أي تأخذ ماهيتها في الزمن المستقبلي. أمّا إذا كانت اللّغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والرغبات - بما أنّ بعض الأفكار والرغبات تظهر في المستقبل- فاللّغة إذن تتشكّل في المستقبل. أمّا إذا كانت اللّغة كائنًا مجردًا تتشخّص في أصوات لها معان - بما أنّ اللّغة مجرّدة ولم تتشخّص كليًا في الماضي والحاضر- فمن المتوقع أن تتشخّص كليًا في المستقبل، وبذلك تكتسب اللغة جوهرها في المستقبل، أي **اللغة تتكوّن في المستقبل**». ويربط الكاتب اللغة بالعقل الذي بدوره يتكوّن في المستقبل. فـ«إذا كان العقل مجموعة وظائف معيّنة، فلابدّ أن يكون مجموعة ميول لاكتساب تلك الوظائف.. والميول قد لا تتحقق في الماضي والحاضر مما يدفعنا إلى القول إنّها تتحقق في المستقبل علمًا بأنّ المستقبل مفتوح على زمن لا متناه وقابل أن تتحقق فيه كل الممكنات. هكذا نجد أن أي تحليل للعقل يؤدّي إلى نتيجة أنّ العقل يتكوّن في المستقبل. **وبما أنّ اللغة تتكوّن في المستقبل، والعقل يتكوّن في المستقبل، والإنسان لغة وعقل، إذًا الإنسان يتكوّن في المستقبل**».

ومع هذا يبقى السؤال الذي حيّر علماء الأنتروبولجيا: أين وُلدت اللغة؟

منذ العام 2002 شرع العالم اللغوي الفرنسي جان ماري هومبير jean-marie Hombert[14] في قيادة فريق من الباحثين، بهدف إيجاد أجوبة علميّة مقنعة حول أصل اللغات. [15]

وكانت الأسئلة كالتالي «**من أين أتت اللغات؟ متى تكلم الإنسان الأول؟ وهل هناك لغة أمّ؟ وبأية معجزة تنتقل اللغة من الأهل إلى الأبناء؟ وكيف تم التوصل إلى تحدث حوالي ستة آلاف لغة اليوم؟ ولماذا نِصْفُ هذه اللغات هو بصدد الاختفاء؟**».

ما يؤكده هومبير منذ البداية هو أن **أصول اللغات كانت حتى فترة قريبة من الزمن مغلفة بالأسرار وبالإبهام، وحتى بالنسبة لعلماء اللسانيات التاريخيين**. لكن مساهمات علم الوراثة La Génétique جاءت لتلقي أضواءً جديدة على فترات أبعد من الـ(10000) سنة التي كان أخصائيو اللغات قد استطاعوا سبر أغوارها. واستطاعت علوم الوراثة أن تحدد فترة ظهور **الإنسان العاقل** «هومو سابيان Homosapien» إلى فترة أقرب بكثير مما كان يتم تصوره سابقًا وبأنه قد تواجد ما بين مئة ألف إلى مئتي ألف سنة. وبنفس الوقت جرى الربط بين ظهور هذا «**الإنسان العاقل**» وبين ظهور اللغة، على

13- السوبر مستقبلية (الكون والعقل واللغة): حسن عجمي الناشر: دار بيسان للنشر والتوزيع بيروت 2006.

14- عالم السانيات والمدير الفرنسي لبرنامج «أصل الإنسان واللغات».

15- في أصول اللغة، مجموعة باحثين بإشراف جان ماري هومبير، الناشر: فايار باريس 2005.
AUX ORIGINES DES LANGUES ET DU LANGAGE, JEAN-MARIE HOMBERT, FAYARD - PARIS 2005.

أساس أن «**الإنسان الأول**» هو الذي استخدم «**اللغة الإنسانية**». واكتشف العلماء أن جنس «الإنسان العاقل» الأكثر قربًا من حقبتنا، كان قد انطلق من القسم الشرقي لإفريقيا منذ حوالي مئة وخمسين ألف سنة. ثم جرى إثبات أنه كان هناك نوع من «التماثل» بين **انتشار الإنسان وانتشار اللغات**.

ويرى هومبير بأنّه بسبب قلّة الكثافة الديموغرافية آنذاك، كان يتم الانتقال بمجموعات صغيرة تضم عشرات من البشر فقط. ويثبتُ خبراء الدّيموغرافيا في العالم أنّ عدد سكان الأرض لم يكن يتجاوز المليون نسمة منذ حوالي خمسين ألف سنة. وقد وصل هذا العدد منذ حوالي عشرة آلاف سنة إلى 10 ملايين نسمة، فساد الاعتقاد بوجود جذر لغويّ واحد. فمن أين أتت الـ6000 لغة التي تتحدثها اليوم أمم العالم وشعوبه؟ إنّ التفرّع قد بدأ منذ حوالي خمسة آلاف سنة حيث كان يوجد في العالم 300 لغة مع تواجد 50 مجموعة بشرية متمايزة إلى هذه الدّرجة أو تلك. بينما لم يكن في فترة ما قبل 10 آلاف و15 ألف سنة سوى 15 مجموعة. فهل كانت هناك لغةُ أمّ واحدة انبثقت منها اللغات الأولية أمْ خمس عشرة لغة من الأُمَّات؟ ما يؤكده المساهمون في هذا الكتاب هو أنه من المستحيل الإجابة عن هذا. ذلك أنّه، **حتى إذا أمكن البرهان على أن هذه المجموعات الخمس عشرة قد انحدرت من لغة أمّ واحدة، فإنه من الممكن تصوّر أن اللّغة قد انبثقت في أمكنة مختلفة وأن مصدرًا واحدًا استطاع البقاء.**

وما يؤكد عليه جان ماري هومبير هو أن للّغة عدة مصادر وليس مصدرًا واحدًا. فمثل هذا التأكيد على **الأصل الواحد للّغة إنما يجد تفسيره في المنهج الديني للتفكير**. وتبقى خصوصية الإنسان في أنه قام في أثناء مسيرة تطوّره التاريخية بـ«تكديس المعرفة» وليس «التقليد» فقط، كما هو في عالم الحيوان. عند الإنسان هناك ما هو «**غريزي**» وما هو «**مكتسب**». وهكذا تطوّرت منظومات التواصل تبعًا لعملية التكدّس لدى مجموعات بشريّة كانت قد تفرّقت في أصقاع مختلفة.

إن نشوء اللغة واللغات وتطورها، يقول هومبير، كان مرهونًا دائمًا **بتطور الدّماغ الإنساني كشرط لازم، لابد من تحققه من أجل التوصل إلى منظومة لإنتاج الكلام**. وهي منظومة «معقدة» لا يمكن أن تصدر إلا عن عقل «معقد» هو الآخر. لكن بعيدًا عن الخصائص الدّماغية وتطورها وما ترتب عنها، فإن جان ماري هومبير، والعديد من الباحثين الآخرين، يعتبرون أن المفتاح الحقيقي لفهم أصول اللغات يتمثل في الانتقال عبر المكان وخاصة عبر البحار.[16]

---

[16]- يورد هومبير في كتابه أن الخارطة «الاحتمالية» التي جرى رسمها للطرق المستخدمة للوصول إلى أستراليا في منطقة الشمال تدلّ على وجود إمكانية دائمة لرؤية ما هو بالمقابل. أما الجدول الزمني فيدلّ على أنّ أولئك الذين انطلقوا من شرق إفريقيا قبل مئة ألف سنة. وكان لا بدّ لهم للقيام بمثل هذه الرحلة إلى أستراليا من تبادل كمية كبيرة من المعلومات. وهكذا بدأوا «كما يفترض» بتبادل «الحديث» منذ حوالي سبعين ألف سنة.. وذلك على أساس أنه لا يمكن تصور القيام بمثل تلك الرحلة دون تبادل الحديث، أي دون وجود لغة شفهية لـ«تبادل المعلومات». أما أولئك الذين ظلوا في إفريقيا فلم تكن هناك حاجة للغة حقيقية لأنهم لم يغيروا محيطهم الجغرافي. (المصدر: صحيفة البيان 5 ديسمبر 2005).

ويعزز هذا الافتراض الباحثان كونتين أتكينسون Quentin Atkinson[17] وزميله روسل غراي Russel Gray من جامعة أوكلاند قد انطلقا في العام 2003 في عملية ضبط تاريخ نشوء اللغة باعتماد نماذج البيولوجيا الجينية. في دراسة علمية نشرها أتكينسون في أبريل 2011 أكّد فيها «أن اللغات العالمية نشأت وظهرت في إفريقيا وانتشرت حول العالم، شأنها في ذلك شأن نشأة البشر». [18] وفحوى الدراسة أن أتكنسون «قام بتحليل الوحدات الصوتية في الكلام المعاصر (مفردات اللغة)، وجد أن نمطها يعكس نمط التنوّع الجيني للإنسان، لافتًا إلى أنه مع هجرة البشر من إفريقيا، وبدء الاستيطان في أماكن أخرى، تراجع التنوّع الجيني، وبالتالي فإن التنوع في الوحدات الصوتية مال إلى التراجع أيضا، ما ترتّب عنه ظهور مفردات لغوية جديدة. وأثبتت الدراسة بروزا أقلّ للوحدات الصوتية في لغات المجتمعات التي استوطنت حديثا، بينما حافظ سكان مناطق الصحراء الإفريقية على الكثير من الوحدات الصوتية. وبالتالي فإنه إذا كان الموطن الأصلي لنشأة اللغة يعود لإفريقيا، لأن اللغة مؤشّر حضاري، فإنّ العالم كلّه يعدّ عائلة في الثقافة كما في المعنى الجيني». [19]

وتشير كرونولوجيا البحث في أصول اللغات، وخاصة الهندو أوروبية، أن علماء اللسانيات في القرنين السابع عشر والثامن عشر لاحظوا تشابها بين اللغات مما مكّنهم من اكتشاف العائلات اللغوية. وفي العام 1871 أشار شارل داروين Charles Darwin إلى أن تطور الأنواع وكذا اللغات توّلدت عنه الآليات النظيرة mécanismes analogues. وفي العام 1950 أسس موريس سواديش Morris Swadesh[20] منهج الغلوتوكرونولوجيا Glottochronologie لدراسة العلاقات الكرونولوجية بين اللغات.

17- باحث بجامعة أوكسفود بمعهد التنوع والتطور الانتروبولوجي، ويدرس في جامعة أوكلاند بنيوزيلاندا.

18- صحيفة العرب القطرية، 22 أبريل 2011.

19- المصدر السابق.

20- موريس سواديش (1909 -1967) Morris Swadesh عالم أمريكي في الانتروبولوجيا واللسانيات.